"أن تكون عجوزًا، أن تكون امرأة في غزة – كيف تبدو الحياة في غزة اليوم؟" عميرة هاس، هآرتس، 6.7.2025

مقدمة:

مرحبًا بكم في "عيون على غزة"، لقاءنا اليومي من أجل الاحتجاج والتعلّم. اليوم تُشاركنا عميرة هاس – صحفية، كاتبة عمود، وناشطة طالما كتبت عن المجتمع الفلسطيني في صحيفة هآرتس. بين عامي 1993 و1997، عاشت في غزة واستمرت في زيارتها بانتظام طالما كان ذلك ممكنًا. وحتى اليوم، لا تزال تحافظ على العديد من العلاقات والصداقات الوثيقة في غزة. عنوان حديثها هو:"أن تكوني امرأة، أن تكوني مسنّة في غزة – كيف تبدو الحياة في غزة اليوم؟" شكرًا لكِ، عميرة، على انضمامك إلينا.

نص المحاضرة:

شكرًا لكِ، أبيليت، وشكرًا لكم جميعًا على حضوركم. فقط تصحيح صغير—أنا لا أُغطي السلطة الفلسطينية. أنا أُغطي الاحتلال الإسرائيلي، من خلال حياة الفلسطينيين الذين يعيشون تحت هذا الاحتلال. ليس لدي شرائح عرض أو صور أقمار صناعية. ما أطلبه منكم هو أن تستخدموا خيالكم—أو استحضروا معرفتكم وتجاربكم الشخصية كأبناء وبنات، وأحفاد وحفيدات—بينما أحاول أن أنقل لكم الواقع كما أسمعه من أصدقائي في غزة.

قبل حوالي شهرين، توفيت والدة أحد أصدقائي في غزة، عن عمر يناهز 85 عامًا. لم تكن وفاتها في هذا العمر مأساة. كانت أعرفها وأحببتها. كانت عناقها ولمساتها تشعرني بحنان الأم. في السنوات الأخيرة، كانت تجد صعوبة في المشي وقد فقدت بصرها، لكنني كنت أشعر دائمًا أنها ما زالت تنظر إلى العالم بفضول وابتسامة ذات معنى—ابتسامة شخص تم تهجيره من قريته في سن الثامنة وبنى حياته رغم ذلك. لم تكن تعرف القراءة أو الكتابة، لكنها عملت طوال حياتها من أجل أن يحصل أبناؤها—ثم أحفادها—على التعليم. لم تكن تشتكي أبدًا من الآلام الجسدية العديدة التي كانت تعاني منها.

وجدتها الحرب في سن الرابعة والثمانين أو الخامسة والثمانين. ومثل الجميع منذ بداية الحرب، أُجبرت عائلتها على الفرار مرارًا—من منطقة شبه مفتوحة إلى منزلهم العائلي القديم في مخيم الشاطئ للاجئين، ثم تحت القصف إلى مدرسة في وسط قطاع غزة، ثم إلى منزل في رفح، وأخيرًا إلى خيمة في منطقة المواصي. في كل مرة، كانت الأولوية أن يجدوا وسيلة لنقلها دون أن تتألم—كيف يحملونها، وأين يضعونها—لأنها لم تكن قادرة على المشي، ولا حتى 500 متر. لم يكن كرسيّها المتحرّك قادرًا على اجتياز ما كان يومًا طرقًا، لكنها أصبحت أنقاضًا ورمالًا بفعل الغارات الجوية المتكررة. لذا كان يجب حملها جسديًا، ما لم يكن بالإمكان أن تصل سيارة أو عربة إلى مكان وجودهم بالضبط. وكل ملجأ جديد كان يتطلب إعداد سرير مؤقت تستطيع الاستلقاء عليه، وفي كل موقع، كانوا يكتشفون أن الأدوية اللازمة لأمراضها المزمنة إما غير متوفرة أو غير كافية. ضاعفوا حالتها هذه بعشرات الآلاف.

هذا الصديق شاركني بتفاصيل كثيرة عن أكثر أمرين كانا يقلقانه. الأول، في المدرسة التي لجأوا إليها، كان هناك 800 شخص ينتظرون استخدام مرحاض واحد. وقد وصف لي ذلك بتفاصيل مروعة لن أكررها هنا. كان عليه أن يجد طرقًا ليجني والدته هذه المعاناة. في الليل، كان النهوض من السرير صعبًا عليها، لذا كان من الضروري إيجاد حفاضات للكبار. لكن هذه نفدت بسرعة أو أصبحت باهظة الثمن—أكثر حتى من حفاضات الأطفال. كان عليه أيضًا أن يضمن أنها تشرب كمية كافية من الماء، لكنني أعلم من آخرين أن كثيرين من كبار السن قللوا من شربهم للماء. فالماء النظيف كان نادرًا، وكثير من المسنّين كانوا يحبسون حاجاتهم الجسدية لأيام لتجنّب معاناة الانتظار في الطابور أو المشي ليلًا إلى مرحاض عام بعيد عن الخيمة. وماتوا نتيجة مزيج من الجفاف والتسمم الداخلي.

قبل الحرب، كان 3% من سكان غزة—حوالي 70,000 شخص—فوق سن الخامسة والستين. لنفترض أن نصف بالمئة فقط—12,000—كانوا من الفئات الأكثر هشاشة. من بين هؤلاء، أعرف شخصيًا أربع نساء ورجلًا واحدًا، هم آباء أصدقائي، ماتوا خلال الحرب. ليس بسبب القصف، بل بسبب أسباب كتلك التي ذكرتها للتو: واحدة ماتت من مزيج من السرطان والحسرة، وأخرى من ضغط الدم المرتفع والحزن، وأخرى بعد إصابتها بجلطة. جميعهم تجاوزوا الخامسة والثمانين. أربعة منهم كانوا قد تهجّروا في عام 1948. المأساة ليست في موتهم بحد ذاته—بل في القسوة التي تعرضوا لها في عامهم ونصف العام الأخيرين. لن أنسى وجه إحداهن، التي توفيت قبل شهر فقط. رأيتها في مقطع فيديو وصلني. حيّها في مخيم جباليا للاجئين قد قُصف، وكان اثنان من جيرانها المقربين يحملانها—كأنهما يرفعانها في الهواء—محاولَين الهرب بها وسط الغبار والرماد. كانت امرأة قوية، لكن الرعب في وجهها كان لا يمكن إنكاره.

ذلك الصديق—الذي تمكّن من مغادرة غزة مع زوجته وأطفاله قبل عدة أشهر—قال لي ما كنت أخشاه بعد وفاة والدته. بالرغم من الألم والحزن، شعر بالارتياح. هذه المرة، لم يتحدث عن الماء أو المراحيض. قال إن أحد أكبر مخاوفه كان أنه عندما تُصدر القوات العسكرية أمر إخلاء آخر—بلغة نظيفة مثل "إعادة التمركز"، أو "الانتقال"، أو "الحركة"—أن تُنسى والدته وسط الفوضى. أن لا يكون هناك من يستطيع حملها. أن تُترك وحدها لتموت تحت القصف، غير قادرة على الحركة أو الاعتناء بنفسه حتى إن لم تُصب مباشرة.

المعاناة المركّبة للنساء يُتحدث عنها بشكل أقل، خاصة في مجتمع أبوي ومحافظ. دعوني أبدأ بما هو واضح. في هذه الظروف، تعمل النساء سبعة أضعاف أكثر من المعتاد: التنظيف، الطبخ، التسوّق—ما كنّ يقمن به أصلًا، لكن الآن كل شيء يتطلب وقتًا وطاقة أكبر، وعندما تنفد القوة، لا بد من الارتجال المستمر. إحدى صديقاتي أخبرتني أنها كانت تطهو الفول. ليس من العلبة—بل كان عليهن إيجاد ماء لنقع الفول، ثم طهوه. لا يوجد غاز، لذا استخدمن مواقد مؤقتة أو أشعلن نيرانًا في العراء. ثم كان عليهن العثور على حطب، وهكذا دواليك. لا أعتقد أن الحرب جعلت الرجال يشاركون أكثر في الأعمال المنزلية. لكن، لكي نكون منصفين، فإن جلب المياه النظيفة أو الحصول على الطعام من مراكز توزيع المساعدات الخطرة أصبح عملًا يوميًا مميتًا—غالبًا ما يقوم به الرجال والفتيان.

لكن هناك أمورًا أساسية لا يتحدث عنها أحد. جميع النساء في غزة يُتوقع منهن—ويردن—تغطية أجسادهن ورؤوسهن في الأماكن العامة. في منازلهن، قد يرتدين الشورت ويكشفن شعورهن. لكن في غزة اليوم، لا توجد مساحة خاصة—من الخيام التي لا توفر أي خصوصية إلى الشقق شبه المدمرة المزدحمة بعشرين فردًا من العائلة الممتدة. لذا، لا تخلع النساء طبقات ملابسهن أبدًا. تخيّلوا الآن حرارة غزة الخانقة، الرطوبة، نقص المياه، وانعدام الوصول إلى الاستحمام تقريبًا. ليس من المستغرب أن الأمراض الجلدية أصبحت منتشرة—ومن النوع الذي يصعب حتى تخيله. كل ما قلته عن المراحيض والنظافة للمسنين ينطبق تمامًا على النساء. هنّ يحتفظن بحاجتهن الجسدية أكثر من الرجال. الفوط الصحية كانت من أوائل الأشياء التي نفدت. تخيلوا معاناتهن أثناء الدورة الشهرية—حين لا يستطعن الاستحمام، إما لعدم وجود حمام في الخيمة، أو لعدم وجود ماء، أو كلاهما.

نتحدث هنا عن شوارع تسيل فيها مياه الصرف الصحي بشكل مكشوف، وتتكدس أكوام القمامة، وتغطي سحب من الحشرات الجو. الرجال والفتيان يمكنهم الدخول إلى البحر بنصف عري، أما النساء والفتيات فلا يُسمح لهن بذلك. سمعت عن انتشار عدوى بين النساء بمعدلات أعلى بكثير من المعتاد. ومع ذلك، تستمر النساء في الحمل والولادة في هذا الجحيم. قد يرى البعض في هذا علامة على الحيوية والأمل—أن الكابوس سينتهي قريبًا. لكنني أشك في هذا التفسير. الأكثر احتمالًا هو غياب وسائل منع الحمل، وعدم وجود ضغط ثقافي أو ديني عام على الرجال ليمتنعوا. لذلك تجد النساء أنفسهن حوامل في منطقة حرب، وهن يدركن أن أطفالهن يعانون من سوء تغذية حتى وهم في الرحم. وهذه ليست سوى قمة جبل الجليد.

.